الأثر القرآني في شعر جابر الجابري

المدرس الدكتور
عدنان كاظم مهدي
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المدرس الدكتور
صادق فوزي دباس
جامعة الكوفة ـ كلية الزراعة

الأثر القرآني في شعر جابر الجابري

المدرس الدكتور
عدنان كاظم مهدي
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المدرس الدكتور
صادق فوزي دباس
جامعة الكوفة ـ كلية الزراعة

المقدمة:ـ

الجابري هو السيّد جابر محمّد الجابري، المعروف بأبي مدين الموسوي. ولد الشاعر الجابري عام ١٣٧٨ هـ بمدينة النجف الأشرف.وقد نشأ في وسط وفي جوّ ثقافي وأدبي في النجف الأشرف، وبدأ حياته الأدبية الشعرية باكراً، فحصد عدّة جوائز من إعدادية النجف، وجمعية الرابطة الأدبية، وأكمل دراساته العليا في بيروت، فقد حصل على شهادة الماجستير من جامعة بيروت كلّية الآداب، قسم اللغة العربية على بحثه الأدبي (السيّد حيدر الحلّي شاعراً)، وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها سنة ٢٠٠١م.

كانت له مشاركة فعّالة في النوادي الأدبية والثقافية والمناسبات الدينية، فهو شاعر وصحفي، وأديب، وكاتب، وله تواصل مع رموز الحركة الشعرية النجفية أمثال السيّد مصطفى جمال الدين، والدكتور الشيخ أحمد الوائلي، وآخرين في منتدى النشر.

أقدم النظام على إعدام أخويه واعتقاله، غير أنّه نجا بأعجوبة بعد أن أقيم في جامعة الموصل مهرجاناً ألقى قصيدته (وإنّي بحمام العليل عليك) فاعتقل بعد إلقائه لهذه القصيدة ثم أطلق سراحه، وبعدها فرّ من العراق وذهب إلى إيران، ثمّ استقرّ في لبنان، وكان له حضور أدبي وإعلامي واسع في الكثير من وسائل الإعلام، كما عقدت له ندوات أدبية وشعرية في الكثير من البلدان

العربية، وبلدان أوربا وأمريكا، حتّى سقوط نظام صدام، ثمّ عيّن وكيلاً لوزارة الثقافة.

من مؤلفاته:

١- الجُرح يا لغة القرآن.

٢- أوراق الزمن الغائب.

٣- كان لنا وطن.

٤- لهم الشعر.

٥- الحلي شاعراً.

٦- مجلّة القصب، دورية ثقافية أدبية.

٧- للريح والرماد.

وقد طبع ديوانه وهو يضم مختارات شعرية من عام ١٩٧٨ لغاية عام ٢٠٠٨ وفي ديوانه هذا أرّخ بأمانة لحقبة زمنية هي من أصعب الحقب التاريخية التي مرت على العراق خلال العقود الثلاث الماضية. ومن هنا تأتي أهمية هذا الديوان فهو ليس مجرد تاريخ شخصي للشاعر بقدر ما هو شهادة شخص على عصره وتاريخ شعبه.

١. القصص القرآني:

كان للقصص القرآني أثر واضح في الشعر العربي سواء في الماضي أم في الحاضر؛ لأن فيها عِظة واعتبار، وفيها كثيرٌ من الدلالات والرموز الأخلاقية والاجتماعية والتربوية. ونجد تكراراً لبعض القصص القرآني وهو أمر محمود لأن ((التكرار بلاغة وترك التكرار في القران في الموضع الذي يستدعيه إخلال بالبلاغة))[1]. ولعل أكثر القصص تكراراً في القرآن قصة موسى عليه السلام. فمن

تلك القصص اغترف الشعراء أحداثها ومعانيها وصورها، وقد اقتنصوا الفتات والإشارات الموحية وحمّلوها شحنات من التعبير الوجداني وفيضاً من الأحاسيس والخواطر.

وكان شاعرنا جابر الجابري قد استوحى من القصص القرآني الكثير من الرموز والدلالات. وقد اختار الجابري منها ما يلائم ويتوافق مع المأساة التي عاشها الشاعر وتحمل أعباءها ففي تلك القصص شخصيات وأحداث قد عبرت عن ما في نفس الشاعر ورسمت صورة صادقة للكبت والمعاناة، فكانت صورة موسى المنقذ وفرعون المتكبر المتجبر (الطاغية). هذا الصراع بين الحاكم والمحكوم وبين القوة المادية الدنيوية والعزيمة الإلهية جعلت الشاعر يوظّف هاتين الشخصيتين في شعره واصفاً حالة الصراع القائم في مجتمعه وفي داخل نفسه المعذبة التائه فيقول متبرماً من قيود الظلم في بلاده[٢]:

فالحكم سوط يد الحكام موطنه كأنما السوط في راحتها التصقا

على العقول قيود ليس تقر بها حرية الرأي عنها تفصم الحلقا

لقد استوحى الشاعر من قصة موسى وشخصية فرعون التي حكمت بني إسرائيل بالقوة والقهر وأذاقتها سوء العذاب، إذ كان أتباع فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وقد ساموهم أسوأ ألوان الذل والاحتقار[٣]:

عاثت فراعنة في الأرض ما وقفت لبغيهم أم موسى تحمل العلقا

ولا تجلى لبحر الروم موكبهم لكي تغور به أفواجهم غرقا

لكن بحار دم هاجت لتلقفهم وتبطل السحر مهما صاغ واختلقا

وهنا يتجلى الصراع الدامي والتقابل بين قوى الشر والخير (فرعون/أم موسى) وهذه الثنائية بين حاكم جبار وأم رؤوف (أم موسى) التي تحاول

حماية ابنها من المستقبل المجهول حينما وقع بين أحضان الطاغية، فكانت سد الأمان بوجه فرعون مثل ما وقف البحر بوجه جيش فرعون ومنعه من الوصول إلى موسى. وهذه الأحداث القصصية ألقت بضلالها على فكر الشاعر فصور لنا الجابري شعب العراق وقد وقف بوجه الطاغية من خلال التضحيات التي قدمها فجرت بحار من دماء شهداء الرأي والفكر الحر غير المقيد وقد أبطلت كل أكاذيب (الطاغية) وسحره الزائف الكاذب الملفق.

وتعود صورة البحر واليم في ذهن الشاعر مرة أخرى في تصوير المحنة والعذاب في مواجهة الطغيان وتقفز إلى مخيلة الشاعر عصا موسى التي أنقذت قومه من الهلاك فانفلق البحر بفرعون وقضت على آخر مشهد من مشاهد الجبروت، وهنا ترمق عين الشاعر حالمة ببر النجاة من بحر الظلم المغرق فيقول[٤]:

واليوم عدنا نخوض البحر ثانية ... بلا عصاك ولا موسى وصاحبهُ

تشوق للساحل المذعور أعيننا ... ونحن في اليم شذاذاً نغالبهُ

وأما قصة يوسف عليه السلام في القرآن قد أوحت للشاعر برموز ودلالات كثيرة مباشرة وغير مباشرة، وهي تمثل كل أنواع الابتلاءات التي يمكن للنفس البشرية أن تتعرض لها من شدة ورخاء وابتلاءات متنوعة بالشهوة والفتنة بالسلطان ليخرج من هذه الابتلاءات والفتن نقياً خالصاً[٥]. وقد اتخذ الشاعر من شخصية يوسف قناعاً يسقط عليه كل مشاعر الرفض للواقع المزري ففي قصيدته (آيات بيّنات) يقول[٦]:

يمر جميع الصديقين على شرفة يوسف...

وهو يمدّ يديه من البئر لحبل الأسرارْ

يوسف اعرض عن هذا

فالبئر أحب إليك... والسجن أحب إليك

والأرض الموعودة حقل ذئابْ

والمرأة تدعوك إليها.. لتغلق خلفك كل الأبوابْ

البئر.. البئر، ولا تركب ظهر العارْ

السجن.. السجن، ولا تعلق بقميصك كف النارْ

هنا الشاعر يخاطب ذاته رافضاً الواقع المليء بالأكاذيب والحيل والظلم والافتراء (فالبئر أحب إليك)، و(والسجن أحب إليك) فالسجن فيه حرية أكبر لأن الذين يعيشون خارج السجن مقيدون خائفون لا يقولون الحق ولا يصدقون نمامون كذّابون خوفاً من الحكّام والسلطة الظالمة ومن يعدك بمستقبل زاهر وجنة من الأحلام (الأرض الموعودة) فاعلم أنك ستكون في غابة من الذئاب.وقد أفاد الشاعر من حادثة دخول يوسف للسجن أنه أدرك أن بقاءه في السجن خير له ففيه نجاة من المكاره والفتن. أما المرأة هنا فهي رمز الفتنة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يوسف/٣٢-٣٣. والمرأة في القصص القرآني لا تذكر إلاّ للعظة والاعتبار[٧] أما دورها في قصة يوسف فيمثل ((الصراع بين الخير والشر، وفيما بين الناس عامة، وفيما بين الإنسان ونفسه خاصة))[٨].

ومن قصة يوسف استوحى الجابري حادثة حلم البقرات السبع ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ يوسف /٤٣، فيقول[٩]:

يوسف أفت القوم: بسبع تأكل سبعاً

وبعصر يأكل عصراً

وبموت يأكل موتاً

أفت القوم إذا جاء الطاعون

أيأكل بعض الناس لحوم البعض

والجابري هنا يختزل مأساة العراق في حلم السنوات السبع التي وردت في سورة يوسف حيث القحط والجوع ومن بعده يعقبه الفرج والرخاء فهو يتمنى أن تكون مأساة العراق حلما تكون نهايته مثل نهاية ذلك الحلم فتنتهي سنوات العراق العجاف المليئة بالظلم والعذاب بالحرية والعدالة والخير والصلاح.

وفي هذه القصيدة أدخل الشاعر شخصية فاطمة الزهراء عليها السلام بجنب شخصية النبي يوسف عليه السلام فيوسف عليه السلام قد سُجِنَ ظلما فكان الشاعر يرى في ظلم يوسف وسجنه تأسياً للمظلومين في سجون العراق واتخذ من فاطمة عليها السلام رمزاً للمحرومين المظلومين وهي أم لكل العراقيين المعذبين المظلومين الذين يرزخون في السجون ومن المعدومين(١٠):

لفاطمة أبناء من طينْ

يختصرون المعنى بين الذبح والسكينْ

يحمل كل ذبيح منهم حشرجة المذبوحينْ

وقد استجمع الجابري كل خيوط قصة يوسف في ربط عجيب لمأساة أهل العراق من خلال فتنة الحب والذئب البريء من دم يوم يوسف والثمن البخس في شرائه وسجنه ظلماً فيلتفت إلى فاطمة قائلاً(١١):

حدث فاطمة الآن عن الحب...عن الذئب..

عن الزمن البخس..عن السجن

فكل التأريخ سجونٌ وذئابْ

فالحب مثل الفتنة والابتلاء ليوسف والذئب رمز الكذب والخديعة والمكر لأخوة يوسف والزمن البخس هو ثمن الإنسان المؤمن في هذه الدنيا حيث لا قيمة لدى المجتمع الفاسد والسجن هو مصير الإنسان الذي يبغي العدل والنزاهة ويرفض العيش بلا كرامة ومن خلال ذلك يصل إلى نتيجة منطقية واقعية فيرى أن التاريخ كله مملوء بالذئاب والسجون. يمكن القول أن الجانب النفسي في قصة يوسف هو النهاية الحتمية لانتصار القيم الإنسانية الجديرة بالخلود إلا وهي الصبر والعفاف والإخلاص والأمانة[١٢].

ويستمر الجابري في خطاب أم الشهداء فاطمة عليها السلام عن المشانق التي ملأت العراق وقد طوقت أعناق المؤمنين الدعاة الأخيار[١٣]:

حدّث فاطمة الآن عن الأشياء الممنوعة

في عصر القتلْ

حدِّثها كيف تكون المشنقة الخرقاء..

وكيف يكون الحبلْ

فالجب يُعبّأُ كل مساء بالمخطوفين

ولأحد يدلي بدلوهْ

ينتحرون جميعاً دون ضجيج يزعج..

هكذا تمتلأ السجون بالمعتقلين القابعين في محاجرها وأقبيتها وهم ينتظرون ساعة الخروج ويترقبون من ينقذهم منها فهو يستوحي هذه الصورة من قصة يوسف حينما ألقى أخوته به في الجب: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يوسف / ١٠.

وإذا كان يوسف عليه السلام قد أنقذته المارة على الطريق فمن ينقذ المعتقلين في

سجون العراق؟! فلا أمل لهم في الخلاص؛ بل هم يموتون ببطء وصمت من شدة التعذيب.

وفي قصة مريم يتشبث الجابري في حكاية تعالى عنها حينما جاءها المخاض: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مريم/ ٢٢ - ٢٥. فيصف محنة شعبه وشعب فلسطين، فيقول مستنهضاً شعب العراق ليثور ويزيح الظالمين[١٤]:

فيا بغداد هزي الجذع وانهي ... مخاضك وارقبي الأجل المتاحا

كفى عاراً فقد وطأتك غصباً ... بغاةٌ في الأذى جدّت مزاحا

عصابة لعنةٍ عقمت لقاحا ... فلما حُمّلت حَمَلَتِ سفاحا

فبغداد حبلى بالهموم والمآسي وهو يدعوها للانتفاضة حتى تسقط عرش الطاغوت. ولا تغيب مأساة فلسطين والقدس عن بال الجابري فهي الأخرى تترقب ولادة ثورة جديدة تتخلص فيها من الكيان الصهيوني الجاثم على صدور أبنائها[١٥]:

خمسين عاماً رأيناها مضرجةً ... وما ترقت إليها غيرة النسب

خمسين عاماً هززنا جذع نخلتنا ... وما تساقط منه فاحم الرطب

نعماك لا نحن أموات فتلفظنا ... أرضٌ ولا نحن أحياء على التُرب

فيسخر من جعجعة حكام العرب الفارغة لأكثر من خمسين دون أن يكون وراءها فعل (وما تساقط منها) فهم باقون على سباتهم فالوقت مازال مبكرا على أن يتحركوا تجاه القدس (فاحم الرطب)!.

٢. الاقتباس القرآني:

من تجليات الأثر القرآني أن يلجا الشاعر إلى الاقتباس من النص القرآني، وقد كُثر هذا الاستعمال الفني للنص القرآني لأسباب عديدة ودواعي كثيرة؛ لأن في القرآن من الأساليب والتراكيب والصياغة ما يجعل الشعراء يقبلون عليه بوعي أو بدون بوعي فالأمر مرتبط بثقافة وخزونه الفكري؛ ولكن الأهم في مسألة الاقتباس هو كيفية توظيف هذا الاقتباس من الفنية كي يفجر الطاقات الدلالية التي يحملها التعبير القرآني وبما يؤدي ذلك الاستعمال إلى ترقية لغته الشعرية، وتنويع صوره الفنية.

وتتنوع صور الاقتباس من النص القرآني مابين اقتباس حرفي من دون تغيير أو اقتباس نصي مع شيء من التغيير. ويلاحظ أن الاقتباس النصي الذي يعتمد على أكثر من مفردة قرآنية داخل النص الشعري ((يسمح للدلالة أن تنتشر فيه متكئة على تلك المفردات بالدرجة الأولى))[١٦].

في شعر الجابري اقتباسات كثيرة ومتنوعة منها ما كان نصياً حرفياً لم يدخل عليه أية تغييرات كقوله في ثورة الحجار الفلسطينية[١٧]:

هنا تعلن الأرض أسماءها

هنا زمن الحشر

زلزلت الأرض زالزالها

وأخرجت الأرض أثقالها

هنا تعلن الأرض، عصر الحجارة

مقتبسا من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ الزلزلة/١-٤.وهذه الآيات تدل على

علامات قيام الساعة وقد جاءت دلالة النص الشعري متوائمة مع دلالة النص القرآني فأرض فلسطين ستعلن زلزالها مستقبلاً معلنة ثورتها (ثورة الحجارة) ضد المحتلين الصهاينة.

واقتبس قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الإسراء/ ١ في مدح أمير المؤمنين علي عليه السلام[١٨].

فكنت كتاب الله يحكي رسالة ... ينوء بها صمتاً، وتنطقها جهرا

لتفخر بالقرآن نهجاً وثورة ... ويحملك القرآن في يده فخرا

وأسري في علياك مجداً مخلدا ... إلى آخر الدنيا فسبحان من أسرى

وقصة الإسراء في القرآن الكريم ترتبط بمسألة الإعجاز فهي واحدة من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ودلالة الآية هنا قد خرجت إلى باب التعجب من فضائل الإمام وعلمه ومنزلته! ولا عجب في ذلك فمنزلته من النبي كمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعده.

وهناك نوع من الاقتباس لا يقوم على الأخذ النصي التام؛ بل يعتمد على النقل التحويري للنص القرآني فيكون هناك تقديم وتأخير وزيادة ونقصان. وهذا النوع أكثر تأثيراً من الاقتباس الشعري التام. وفي شعر الجابري شواهد على هذا الاقتباس ففي قصيدته التي ألقاها في الحفل التكريمي لوفد الجامعة اللبنانية في طهران يقول[١٩]:

حييتكِ مثقلةً بالوجد إيرانُ ... عيون مجد بها ينجاب لبنانُ

عيون مجد تلاقت عند منعطفٍ ... لنور عينيك تاهت فيه أكوان

قد آنست فيك ناراً بعد وحشتها ... فصفّقت بكؤوس الوجد نيرانُ

وفي البيت الأخير اقتباس لقوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ طه / ٨-١٠، ومن المعلوم أن هذه الآية قد وردت في قصة موسى حينما خرج هارباً خائفاً من فرعون وكانت برفقته زوجه فرأى نارا، والنار عند العرب توقد ليلاً كي يهتدي إليها الساري إذا ما ضل الطريق فيهتدي فينزل ضيفاً عند أهلها[٢٠]؛ وقد عرفت عندهم بـ (نار القرى).[٢١] فالنار دليل على الطمأنينة بدليل الفعل (آنس) الذي ورد في الآية. فالجابري أراد من خلال اقتباسه للآية الكريمة القول أنه وجد في إيران الملاذ الآمن بعد أن كان خائفاً متوجساً ففيها الوجد والأشواق تتلقي من غير خوف. ومن ثم يواجه خطاباً إلى كل العشاق والأحبة قائلاً[٢٢]:

هذي نداماك يا طهران عاد بها عشق ليحملها روح وريحانُ

تجاذب النور في عينيك ظامئة إلى روائك أرواح وأبدانُ

فقد اقتبس من قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ الواقعة/٨٩ واصفاً مشهد اللقاء وهذه الآية وردت في وصف الجنة وأهلها ومن خلال هذا الاقتباس أراد الجابري أن يعبر عن الفرح والغبطة والسرور لاجتماعه بالأحبة في طهران فقد أمست ملتقى للعشاق وجنة للأحباب.

ومن خلال هاتين الآيتين المقتبستين أراد الجابري أن يعبر عن حالة الاستقرار والأمان والخير الوفير في إيران وهي حالة شعورية قد انتابت كل العراقيين في المنفى الباحثين عن الاستقرار والملجأ الحصين حيث لا يصل إليهم النظام وجلاوزته حتى أصبحت إيران قبلة المنفيين في الخارج[٢٣]:

فأنت قبلة كل الطالبين عُلىً وأنت عند سباق المجد ميدانُ

وفي قصيدة (آيات بيّنات) اقتبس الجابري آيات قرآنية وقد حوّرها في شعره بأسلوب فني للتأثير على المتلقي وزيادة الانفعال والتأكيد ومنح دلالات جديدة فيقول [٢٤]:

ستدق نواقيس الموتى..

لتضم النعش إلى جوقتها

ويدّوي إيقاع النجم

ينثر بعض الموتى عطر البخور

النجم سيهوى.. وتدك الأرضُ

لتصبح كالريح (جبال الطورْ)

وسيدعى كل المذبوحين بقاتلهم...

يبتلع الطوفان سيوف الذبح

إذا فار التنورْ

ستأتي فاطمة..تجمع أشلاء النجمْ..

ويوسف ينفخ في الصورْ

في هذا النص استمد الشاعر من الآيات القرآنية: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ مريم /٥٢، وقوله ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ العنكبوت/ ١٤، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ هود/٤٠، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ طه/١٠٢. أفكاره وصوره، وجميع الآيات التي اقتبسها الجابري أراد من ورائها الدلالة على الثورة المرتقبة والانتفاضة القادمة ثأراً لدماء الشهداء وسوف تدمر هذه الثورة عرش الطاغوت وتدك معاقله و(الطوفان) الثورة القادمة ستنهي المجرمين القتلة و(التنور) إرادة الشعب التي ستثور ضد

الظالمين. في هذه اللحظة تبرز (فاطمة) رمز المظلومين والضحايا الأبرياء لتجمع شمل هذا الشعب الجريح ويؤازرها يوسف عليه السلام رمز البراءة والعفة والطهارة.ليعلن قيام الحق (فينفخ في الصور).

وفي هذا النص لجأ الجابري في بعضه إلى الرمز والإشارة فلم يلتزم بالصياغة اللفظية للقرآن وتركيبها وهذا ما يسمى بالاقتباس الإشاري[٢٥]، فهو يشير إلى المعنى أو الحدث الذي ورد في النص القرآني بما فيه من الدلالات التي يحمّلها الأهداف التي يرمي إليها. وهذا النوع من الاقتباس من أفضل أنواع الاقتباس لأنه أشد إيثاراً، ويثير انفعالاً، ويحمل دلالات أوسع وأعمق، ولأنه أوجز في التعبير؛ فتكون بلاغته أعمق وأشد.

وفي مناسبة عيد (الغدير) استمد أفكاره من النص القرآني من خلال الإشارة إلى الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ التوبة/٢٥، وقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/٢٢-٢٣. فيقول مادحاً أمير المؤمنين[٢٦]:

ويوم حنين والرجال تناهبت ... خطاها رمال البيد واجمة حيرى

وقفت لها طوداً تباعد همّه ... ويمناه عند الروع تسبقها اليسرى

وغائلة الأحزاب فاضت بخندق ... إلى اليوم لم تدرك لخندقها الوترا

لقد صوّبت فيك السماء سهامها ... وكنت لمرماها كنانتها البكرا

فأشار هنا إلى معركة حنين وفيها اغترّ المسلمون بكثرتهم ولكن ما إن احتدم القتال وأصابت المشركين حمية الجاهلية حتى أصاب المسلمين الخوف والرعب فانكسروا في المعركة لولا أن أمدهم الله بجنود من الملائكة وقد أبلى الإمام عليه السلام في المعركة بلاءً حسنا. والواقعة الأخرى التي أشار إليها الجابري هي معركة الأحزاب إذ كان للإمام دور حاسم فيها وذلك من خلال قتله لعامر بن ود العامري. واستطاع الجابري من خلال هذه الإشارة البسيطة واللمحة الخفية أن يعطي صورة موجزة مكثّفة لموقف الإمام في تلك المعركتين.

٣. الألفاظ القرآنية:

إن الشاعر لا يستعمل الألفاظ كما هو متعارف عند العامة من الناس؛ بل يضفي عليها أفكاراً عديدة يريد توصيلها إلى المتلقي[٢٧]، ولذا يعمد على شحن تلك الألفاظ بكل ما يستطيع من مشاعر وأحاسيس وخيال ويخلق فيها قدرة روحية ((وبدلاً من أن تكون الكلمات تعبيراً عادياً يشير إلى الأشياء نجده يعتبرها بمثابة فخ يمسك بالحقيقة الهاربة))[٢٨].

ولا يمكن أن تقوم الألفاظ بمفردها من حيث هي ألفاظ مفردة؛إنما الأمر يقوم حول دلالة تلك الألفاظ، فالألفاظ على رأي عبد القاهر الجرجاني رموز للمعاني المفردة التي تدل عليها هذه الرموز أوهي مجرد علامات للإشارة إلى شيء ما وليست للدلالة على حقيقته. والإنسان يعرف مدلول اللفظ المفرد أولاً ثم يعرف هذا اللفظ الذي يدل عليه ثانياً[٢٩].

وفي البناء الشعري يكون الشاعر دقيقاً في اختيار الألفاظ واستعمالها في التركيب وما توحيه من دلالات وما تعطيه من معاني، فالمعاني الشعرية تستمد قوتها وتحدث أثرها النفسي من خلال اختيار الألفاظ بأصواتها وسياقاتها.

والأخذ من ألفاظ القرآن ثروة لا تنضب ومعين لا ينفذ وإدخالها في النص الشعري يعطي تلك الألفاظ دلالات جديدة مقترنة بالسياق المعنوي والمناسبة

التي ورد فيها النص الشعري.

ويمكن أن توضع الألفاظ القرآنية في مجاميع وفق دلالاتها والمعاني المرتبطة بها، فهناك ألفاظ قرآنية وردت للدلالة على أركان الإسلام من مقدسات وقيم إسلامية قام عليها الإسلام، ومنها لفظة (الأذان)، وهو لفظ إسلامي وهو من مقدمات الصلاة. والأذان من أذن بمعنى علم[٣٠]، يقول الجابري في استعماله لتلك اللفظة[٣١]:

في غبش الفجر

أُعيد قراءة وجهك

أملأ عيني المتعبتين من الليل بعينيك

أفسِّر صوتك حين يحيل الهمس إلى صوت يحمل سرّ الآذانْ

والجابري هنا أعطى لهذه اللفظة مدلولاً جديداً فاكسب معنى وفهماً جديد فهو يلتذّ بصوت الحبيب مثل ما يلتذّ ويخشع المؤمن حينما يسمع صوت الأذان وهو يترقب صوتها ليقوم ويصلي صلاة الفجر،، وينتظر هذا الأذان بملء الصبر بداية الفجر (في غبش الفجر)

ومن الألفاظ المرتبطة بأركان الدين (الصلاة)، و(التبتل)، و(النبوة)، و(الإمامة)، فيقول واصفاً أبطال جنوب لبنان[٣٢]:

صلاتكم والملاحم واللهيب ووحيكم التبتل والوجيب

وصوتكم والنبوة وهي وحيٌ له في كلّ ساكنةٍ هبوب

وسيفكم الإمامة وهو حدٌّ على شفراته الدنيا تذوب

والصلاة في مفهومها اللغوي تعني الدعاء والصلة بين الخالق والمخلوق،[٣٣] وهو هنا يصف هؤلاء الأبطال بأن البطولات والمعارك غدت

صلاة لهم فانتقلت دلالة الفعل من الدعاء إلى معنى جديد هو حب القتال والجهاد والمقاومة ضد الاحتلال وقد استخدم الجابري إلى جنب تلك اللفظة (التبتل) وهو الانقطاع الكلي إلى الله تعالى والاتجاه إليه بالعبادة والذكر والتخلص عن كل شاغل والحضور مع الله بجميع الحواس والمشاعر[٣٤]. وهذا الأمر يقوي الدلالة الجديدة التي أرادها الشاعر. وقد أسند الجابري لتلك الألفاظ لفظة (النبوة)، و(الإمامة) وهما من أركان العقيدة وقد وردتا في نصوص عديدة في القرآن الكريم[٣٥]؛ وذلك توكيداً لعقيدة أبطال الجنوب في محاربة الكيان الصهيوني.

وفي القصيدة ذاتها استعمل الجابري ألفاظاً قرآنية ترتبط بالحج ولوازمه من (الإحرام)، و(والتلبية) فيقول[٣٦]:

ففارت بالجنوب لكم دماء ... تروّي سيلها وجه خصيبُ

حججتم محرمين له وطفتم ... بكعبته وخدكم تريبُ

ولبيتم نداء الله فيه ... لأنكم المؤذن والمجيبُ

فكنتم للجنوب يداً وقلباً ... وكان أباً لعزمكم الجنوبُ

وهذه الصورة استوحاها الجابري من مشهد الحجيج وهم يطوفون حول الكعبة، وهذه الشعيرة المقدسة تتمثل أمام أعيننا في صورة هؤلاء المقاتلين وهم يدافعون عن أرضهم في الجنوب فكأنهم حجاج يلبون نداء الوطن في الدفاع عن أرضه.

وفي إحدى القصائد التي قالها الجابري في رثاء الشيخ سلمان الخاقاني (ت ١٩٨٩م) كان قد استعمل ألفاظاً قرانية تتعلق بعالم الغيب مثل: (جنة المأوى) و(الكوثر) فيقول[٣٧]:

كـأني وقـد سـاق المخفـون ركبـهم إلى جنـة المـأوى يحفّهـم الأجـرُ

ويـدعو إليهـا كـل قـوم إمـامهم وقـد أنعـم الـورّاد مـن كـوثر نهـرُ

مشـيت إلى جنـب الحسـين وصـحبه تغطـي محيـاك المهابـة والبشـرُ

وهنـا وصـف لحـال المرثـي وهـو في عـالم الآخـرة كونـه مـن أصـحاب الجنة ومـن ورّاد حوض الكوثر وأنه من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وقد عمد إلى تلك الألفاظ كي يبين أن مكانة المرثي مع الشهداء ومن ثم يؤكد هذا المعنى في خاتمة قصيدته التي دعا له فيها إلى الحشر والشفاعة مع الإمام الحسين عليه السلام[٣٨]:

وإن كان لم يجمعـك بالسـبط موقـف سـتجمعه فيـك الشـفاعة والحشـرُ

ولفظة (الشفاعة) و(الحشر) من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم وهي من صفات يوم القيامة.

وهناك ألفاظ كثيرة وردت في شعر الجابري استمدها من القرآن الكريم مثل: (الشيطان)[٣٩]، و(الحمأ المسنون)[٤٠]، و(الاستغفار)[٤١]، و(الأبتر)[٤٢]، و(السابقون السابقون)[٤٣] وغيرها.

الخاتمة:ـ

في نهاية البحث هناك عدداً من النتائج المهمة التي توصل إليها البحث منها:

١. إن الشاعر الجابري قد ترعرع ونشأ في بيئة دينية وقد تركت أثرها في فكر الشاعر وصوره وأخيليته، فالشاعر قد تأمل وتدبر في آيات القرآن الكريم، وقد حاول أن يدخل النصوص القرآنية في ثنايا شعره لا لمجرد

الأخذ؛ بل كان يستوحي من القرآن مادته الشعرية وعقيدته في الحياة ومنهجه في التفكير.

٢. أخذ الشاعر من القصص القرآني ما كان يتعلق بأحداث الظلم والفتن، وقد وجد في قصة موسى عليه السلام ويوسف عليه السلام ما كان يبتغيه، ففيهما من الأحداث التي تتحدث عن الظلم الشيء الكثير. أما في قصة مريم فقد أفاد منها في التعبير عن محنة شعبه ومحنة فلسطين التي لا تزال في المخاض وتنتظر الولادة لتلد مستقبلاً جديداً يزيح كل آثار الظلم والعدوان.

٣. كان الشاعر ينوع في أساليب الاقتباس من النص القرآني بين تنصيص حرفي وتحويري وإشاري. ولم يكن يرمي إلى مجرد التزيين أو التجميل في هذا الاقتباس؛ بل مضى إلى إعادة تركيب وتفكيك النص القرآني وإعادة صياغته بشكل فني حاذق.

٤. ورد في شعره الكثير من الألفاظ القرآنية وفي عدة مجالات دلالية وقد اقترنت بسياقات النص فأفادت دلالات جديدة غير دلالتها الأصلية.

٥. أن جميع القصص القرآني التي أفاد منها الشاعر توحي في بداياتها بالظلم الذي حلّ بأنبياء الله تعالى فالمأساة واحدة وإن تعددت الشخصيات، وكان دائماً في نهايتها النور والخير فحاول الشاعر استيحاء أو اقتباس تلك القصص وتطبيقها على مأساة الشعب العراقي؛ فكأنما يصبّر شعبه ويقول لهم: اجعلوا من أنبياء الله قدوة لكم فإنه بعد الصبر سيأتيكم الفرج.

هوامش البحث

(١) بيان إعجاز القرآن / الخطابي: ٥٢.
(٢) ديوان الجابري: ٢١٠.
(٣) ديوان الجابري: ٢١٠.
(٤) ديوان الجابري: ٤٦٠.
(٥) ينظر: الإعجاز القصصي في القرآن / د سعيد عطية: ٢٢١.
(٦) ديوان الجابري: ٣٦٠.
(٧) ينظر: قصتا آدم ويوسف/ عبد الكريم الخطيب: ٤٧.
(٨) الإعجاز القصصي: ٢٢٢.
(٩) ديوان الجابري: ٣٦٠.
(١٠) ديوان الجابري: ٣٦٣.
(١١) ديوان الجابري: ٣٦٣.
(١٢) ينظر: سيكولوجية القصة في القرآن/ د. نقرة التهامي: ٥١٤- ٥١٦.
(١٣) ديوان الجابري: ٣٦٣.
(١٤) ديوان الجابري: ٣٠٥.
(١٥) ديوان الجابري: ٤٣٥- ٤٣٦.
(١٦) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : ١٧٢.
(١٧) ديوان الجابري: ٢٥٨.
(١٨) ديوان الجابري: ٢٥٠.
(١٩) ديوان الجابري: ٣٥١.
(٢٠) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام /د جواد علي: ٤/ ٥٨٢.
(٢١) ينظر: ثمار القلوب / الثعالبي: ٤٦١.
(٢٢) ديوان الجابري: ٣٥١.
(٢٣) ديوان الجابري: ٣٥١.
(٢٤) ديوان الجابري: ٣٦٢.
(٢٥) ينظر: معجم آيات الاقتباس: ١٩.
(٢٦) ديوان الجابري: ٢٥٠.
(٢٧) لغة الشعر: ١٨
(٢٨) بحث في علم الجمال / جان بريتلمي: ٢٨٨.
(٢٩) ينظر: عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده /أحمد مطلوب: ٩٨.

(٣٠) ينظر: لسان العرب: مادة أذن.
(٣١) ديوان الجابري: ١٥٧.
(٣٢) ديوان الجابري: ١٤٨.
(٣٣) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر والقرآن /عودة خليل أبو عودة: ١٨١-١٨٣.
(٣٤) ينظر: في ظلال القرآن / سيد قطب:٣٤٧/٨.
(٣٥) ينظر: الحجر:٧٩، البقرة: ١٢٤، آل عمران: ٧٩، الأنعام: ٨٩ العنكبوت:٢٧.
(٣٦) ديوان الجابري: ١٤٩.
(٣٧) ديوان الجابري: ٢٤٠.
(٣٨) ديوان الجابري: ٢٤١.
(٣٩) ديوان الجابري: ٣٨٢-٣٨٣.
(٤٠) ديوان الجابري: ٣٦١.
(٤١) ديوان الجابري: ١٥٨.
(٤٢) ديوان الجابري: ٣٥٩.
(٤٣) ديوان الجابري: ٤٤٠.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- الإعجاز القصصي في القرآن، د سعيد عطية علي مطاوع، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

٣- بحث في علم الجمال، جان بريتلمي، ت: د أنور عبد العزيز، مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٠م.

٤- بيان إعجاز القران الكريم ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله ود محمد زغلول سلام، القاهرة، د.ت.

٥- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٥م.

٦- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي النيسابوري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٧- ديوان جابر الجابري، مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية، ط١، ٢٠١٠م.

٨- سيكولوجية القصة في القرآن، نفرة التهامي، تونس، ١٩٧٤م.

٩- عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د احمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٣م.

١٠- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٢، ١٩٨٦م.

١١- قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، محمد عبد المطلب، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٢- قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٣- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٣٠٠هـ.

١٤- معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البدري، دار الحرية للطباعة ودار الرشيد النشر، بغداد، ١٩٨٠م.

١٥- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٧٨م.